النجم إذا هوى والأفق الأعلى وسدرة المنتهى

قال تعالى في سورة النجم آية ١٨ (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى).
إننا نريد الآن أن نفسر هذه الآيات كلها عقب أن ننقل ما قاله المفسرون في كل واحدة منها فنقول إن المفسرين قد اختلفوا فيما هو المراد من النجم المقسم به. فقال أكثرهم المراد به نجم السماء إذا هوى أي مال إلى الغروب أو هوى لرجم الشياطين. وقيل نجوم الأرض من النباتات الذي لا ساق له. وقيل القرآن الذي نزل نجوما. وقيل محمد حينما نزل من السماء ليلة المعراج: وقيل العلماء حينما يغوصون في بحار الأفكار لاستخراج درر الأسرار. هذا ما قاله المفسرون في ذلك.

ما أقوله في المراد من النجم. خلافا للمفسرين

أقول إن المفسرين حينما يفسرون آية فإنهم لا ينظرون إلى ما يرتبط بها من الآيات الأخرى. فلو نظروا هنا إلى العبارات المتلائمة التي هي على معنى واحد في قوله (إذا هوى) وقوله (ثم دنا فتدلى) وقوله (نزلة أخرى) التي تفيد أن المراد بها شيء واحد تنطبق كلها عليه لما فسروها بما قالوه أبدا إذ لا تنطبق هذه العبارات الثلاث مجموعة على شيء مما قالوه. ولكنها تنطبق تمام الانطباق مجموعة على روح القدس الذي نزل من السماء على محمد صلى الله عليه وسلم فهو نجم يضيء القلوب ويهتدى به إذا نزل من السماء على أي نبي من الأنبياء وهو الذي دنا من محمد وتدلى إليه فكان منه قاب قوسين أو أدنى وهو الذي رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وبهذا ترتبط الآيات كلها مع بعض وتنطبق على شيء واحد فالله سبحانه أقسم بالنجم الذي هو الروح القدس الذي هوى ونزل من السماء على كل الأنبياء بأن محمدا ما ضل فيما ادعاه ولا غوى. وهذا إنما هو قسم بالمؤثر على تحقيق أثره. وذلك مثل أن تقول وحق الشمس والشمس المضيئة لكل الأرجاء إن بيتكم ما هو مظلم بل مضيء بهذه الشمس المشرقة على جميع الأنحاء. وهنا كذلك فإن الله تعالى يقول وحق روح القدس الذي ينزل على جميع الأنبياء أن صاحبكم لمهتد به ما ضل (ص٤٤) ... غوى كما لم يضل من كان قبله من الرسل والأنبياء.
ويؤيد تفسيرنا هذا أمور (أولا) قوله تعالى بعدها (وما ينطق عن الهوى عن هو إلا وحي يوحى) فإنها صريحة في أن الكلام إنما هو في ... الذي نزل به الروح القدس المسمى تارة بالناموس وأخرى بجبريل (ثانيا) قوله تعالى (علمه شديد القوى) إذ المراد بذلك جبريل كما هو قول أكثر المفسرين (ثالثا) قوله تعالى (ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى) إذ المراد بذلك أيضا جبريل أي أنه ذو علم وحكمة وقوة ونفوذ وتصرف.
قال المفسرون ومعنى (استوى) أي نضج في علمه وقوته كما تستوي الثمرة. وقيل معنى استوى أي استقام على صورته الأصلية التي خلقه الله عليها حينما رآه النبي (ص) على صورته الأصلية التي لها ستماية جناح كل جناح منها قد سد الأفق. وهذا معنى قوله (وهو بالأفق الأعلى) ومعنى قوله (ثم دنا فتدلى) أي بعد أن مد جناح وهو بالأفق الأعلى عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها وقرب من النبي (ص) وتدلى في الهواء كما تدلى الثمرة حيث كان منه قاب قوسين أي مقدار ما بين القوس أو ... (ص٤٥) فأوحى إلى عبده بواسطة جبريل ما أوحى . هذا ملخص كلام المفسرين .... هذه الآية.

ما أفهمه فيها وفي المراد من الأفق الأعلى

إنني أفهم في هذه الآية فهما آخر غير ما فهمه المفسرون وهو أن الروح القدس في بدء نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كان قد أرسل له أشعة .... نوره واستولى على نفسه الشريفة وهو بالأفق الأعلى لم ينزل إليه كما ترسل الشمس أشعتها على الأرض وتستولي عليها بنورها وهي في أفقها ومكانها لم تنتقل عنه ثم لما استعد النبي (ص) لقبول النور بمقدار أكثر من ذلك دنا منه الروح القدس بنوره وقرب إليه حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما أوحى. وعليه فمعنى (ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى) أي ذو قوة ونفوذ في نوره أي أن نور روح القدس قد وصل ونفذ إلى محمد (ص) واستوى أي استولى عليه في بدء الأمر قبل أن ينزل عليه الروح بنفسه. ثم لما استعد النبي لنزول الروح نزل إليه ودنا منه بنفسه كما يشعر بذلك تعبير الآية بلفظ (ثم) التي تدل على الترتيب والتراخي.

قال تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى) قال بعض المفسرين المراد فؤاد محمد أي ما كذب فؤاد محمد ما رآه ببصره من صورة جبريل أي ما قال فؤاده لما رآه ببصره لم (أعرفك) ولو (ص ٤٦) .... ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره وحينئذ فلا تكذبوه ولا تجادلوه على ما رآه معاينة ومشاهدة. وقال بعضهم المراد مطلق ... أي أن الذي يكذب رؤية محمد لصورة جبريل إنما هو الوهم والخيال ،لكن من له قلب وفؤاد لا ينكر ذلك وإن كانت النفس المتوهمة والمتخيلة .... هذا ما قاله المفسرون في ذلك.

ما أفهمه في قوله (ما كذب الفؤاد ما رأى)

أقول إنني أفهم في هذه الآية فهما آخر غير ما فهمه المفسرون ... أن هذه الآية تقول إن رؤية محمد للروح القدس إنما هي رؤية قلب و.... لا رؤية بصر حتى تمارونه أي تكذبونه وتجادلونه في ذلك بدعوى ... آه هو بعينه حيث أن حدقات الأعين سواء بالنسبة للمبصرات ولكن لما كانت هذه الرؤيا قلبية فحينئذ لا يماري فيها .... لأن القلوب ليست سواء فيما ترى وليس ما يراه قلب زيد مثلا يلزم أن يراه كل قلب كما هو معلوم بالضرورة. وحينئذ فكيف تمارونه وتكذبونه وتجادلونه فيما رآه بقلبه وفؤاده بما لا تعلمونه ولا تملكون تكذيبه. .... قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) أي وتكذيب الإنسان .... فيما لم يعلمه إنما هو جهل محض ومكابرة في غير محلها.

ما قاله المفسرون وما أقوله في المراد من (سدرة المنتهى)

قال تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى). قال بعض المفسرين في معناها أي لقد رأى محمد جبريل على صورته الأصلية مرة أخرى في ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى وهي شجرة نبق عن يمين العرش في السماء السابعة نبقها كقلال هجر وأوراقها مثل آذان الفيلة يسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها وعندها الجنة التي هي مأوى المتقين، ولقد رآه كذلك حينما غشى هذه السدرة ما غشيها عن الملائكة الأخرى الذين طلبوا من الله أن يروا محمد فغشوا السدرة لينظروه وقيل قد غشيها جراد من ذهب وبدلت أغصانها وأوراقها لؤلؤا وياقوتا وزبرجدا وقيل قد غشيها نور الله وجلاله فرأى من آيات ربه الكبرى. (ما زاغ) أي ما مال بصره عما رآه من ذلك (وما طغى) أي ما تجاوزه بل تثبت منه وتحققه. وقال بعضهم لقد رأى محمد الله تعالى عند سدرة المنتهى عندما غشيها نوره جل وعلا. وقد اختلف المفسرون في معنى رؤيته لذات الله تعالى هل هي بصرية أو قلبية وأطالوا في ذلك مما لا حاجة لنقله هنا لطوله وشهرته.

أقول أن المحدث عنه إنما هو الفؤاد وقوله (عند سدرة المنتهى) متعلق بقوله (نزلة أخرى) أي أن فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى الروح القدس مرة أخرى عند نزلته إلى سدرة المنتهى. والمراد من سدرة المنتهى هي المرتبة التي ينتهي إليها الأنبياء في الارتفاع وينتهي إليها روح القدس في النزول أي أن فؤاد النبي (ص) قد رأى روح القدس رؤية قريبة جدا في المرة الأولى حين دنا منه وتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ثم رآه بهذا القرب أيضا مرة أخرى حينما نزل إلى سدرة المنتهى أي أنه رآه رؤية قريبة جدا مرتين فقط وفيما عداه كان يراه وهو في الأفق الأعلى بعيدا عنه يشع على فؤاده إشعاعا كما تشع الشمس وهي في أفقها على المرآة الصافية.

هذا ما أفهمه في هذه الآية بقطع النظر عن المذاهب والاعتقادات بل بالنظر لما يعطيه لفظها من المعنى بدون تكلف ولا تعسف.

وسدرة المنتهى يصح أن يراد بها كل نبي في زمانه لأنه آخر ومنتهى مرتبة وصل إليها الإنسان في ذلك الزمان فسدرة المنتهى في آخر الزمان هي النبي عليه الصلاة والسلام لأن جميع العلوم والكمالات قد انتهت إليه إلى انتهاء الدنيا. وإنما سمى سدرة لأن الناس يستظلون بظله ويجتمعون إليه كما يستظلون بالسدرة ويجتمعون تحتها ولا شك أن هذه السدرة النبوية عندها جنة المأوى لأن من اتبع النبي (ص) بل كل نبي من الأنبياء فقد وصل إلى الجنة. ولا شك أيضا أن هذه السدرة يغشاها من الأنوار ما لا يوصف ومن الناس ما لا يحصى.

ثم إن قوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى) هو الأمر الرابع الذي يؤيد تفسيرنا في أن المراد من النجم إذا هوى هو الروح القدس إذا نزل. وقوله تعالى (ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قال المفسرون أي ما زاغ بصر النبي (ص) عن رؤية جبريل على صورته الأصلية ليلة المعراج أو ما زاغ بصره عن رؤية ذات الله جل وعلا في تلك الليلة.

أقول أن قوله (ما زاغ البصر وما طغى) متعلق ومتصل بما بعده وهو قوله (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أي ما زاغ بصره الحقيقي أو بصره القلبي عما رآه من الآيات والبيانات العظمى طول حياته وما طغى فيها أبدا وحينئذ فلا موجب لتخصيص ذلك برؤية جبريل أو ذات الله تعالى ليلة المعراج ببصره الحقيقي مادام أن المرأى هو الآيات لا الذوات والله أعلم بمراده.